٤٤- باب من سب الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) .

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ﷺ قال: «قال تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر أقلب الليل والنهار» .

وفي رواية: «لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر» .

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر.

الثانية: تسميته أذى الله .

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر».

الرابعة: أنه قد يكون سابا، ولو لم يقصده بقلبه.

الشرح:

لا يزال كلام الماتن رحمه الله تعالى حول الشرك في الألفاظ ؛ وهذا باب منه وسيأتي أبواب أخرى في هذا الموضوع نظرا لأهميته وخطورته في الناس؛ وقد اهتم به المؤلف رحمه الله تعالى فعقد له عدة أبواب .

باب من سب الدهر فقد آذى الله سبحانه وتعالى؛ وسيذكر أيضا أبوابا أخرى في أخنع الأسماء وأخبث الأسماء وغير ذلك؛ يعني لا يزال كلام المؤلف رحمه الله تعالى معقودا في بيان الشرك في الألفاظ وخطورته؛

ومعنا باب أيضا من الأبواب الخطيرة والمهمة **باب من سب الدهر فقد آذى الله سبحانه وتعالى** ؛ ونحن في مسيس الحاجة لمعرفة ما يتعلق بهذا الباب وفقه هذا الباب نظرا لأن البعض من قومنا تجدهم يتكلمون بسب الدهر ؛ تجد واحدا يكتب على سيارته غدار يا زمن مثلا ؛ والبعض يسب الأيام والليالي ويسب الزمان ويقول يا خيبة الدهر أو يا خيبة الزمان أو هذا دهر خوان أو دهر غدار أو دهر ظلوم ونحو ذلك ؛ وألفاظ أخرى كثيرة الناس يعيبون بها الدهر ويعيبون بها الزمان ويعيبون بها الأيام والليالي؛ والأيام والليالي والزمن والدهر إنما هي مسخرة بتسخير الله سبحانه وتعالى لا تملك لنفسها شيئا بل هي مدبرة وهي محل للحوادث ومحل لما أودعه الله تعالى فيها ؛ والدهر مخلوق كما أنك مخلوق فالدهر مخلوق والزمان مخلوق والأيام والليالي مخلوقة والسنون مخلوقة فكيف ينسب إليها الفعل وكيف تسب ؛ وإذا سبها الإنسان فإن سبها لا يخلو من أمرين:

الأمر الأول : الشرك الأكبر؛ لأنه إذا اعتقد أن هذا الدهر الذي يسبه يفعل وهو فاعل ويصرف الأمور ويتحكم فيها ويأتي بالخير والشر فقد أشرك بذلك الشرك الأكبر؛ فقد وقع في الشرك الأكبر؛ فإنه اعتقد أن هذا الدهر يتصرف أو يخلق أو يعطي فلانا أو يمنع فلانا فهو بهذا وقع في الشرك الأكبر لأنه اعتقد أن هناك فاعلا وخالقا ومدبرا مع الله سبحانه وتعالى؛

الأمر الثاني : الشرك الأصغر ؛ إذا اعتقد أن الخالق والفاعل هو الله سبحانه وتعالى ويسب الدهر لأنه وقع فيه هذه الحوادث والمكروه فهذا محرم؛ وبعض أهل العلم يقول شرك ويسكت؛ على اعتبار أن هذا من الشرك الأصغر.

على كل حال ساب الدهر الشخص الذي يسب الدهر يدور بين هذين الأمرين:

إما أنه واقع في الشرك الأكبر باعتقاد أن الدهر فاعل مع الله والأيام والليالي تفعل وأن هناك مدبرا لهذا الكون ومصرفا له غير الله فهذا مشرك شركا أكبر؛

وإما يعتقد أن الله جل وعلا هو المدبر وهو المتصرف ويسب الأيام والليالي والدهر والزمان لأنه يقع فيها هذا المكروه الذي يظنه هو مكروه فهذا أيضا من الأمور المحرمة .

لكن قد يقع من بعض الناس وصف الأيام والليالي بما حصل فيها؛ كأن يقول الإنسان هذا يوم بارد شديد البرودة أو هذه الأيام أيام صيف وقيظ وحر شديدة الحرارة حصل لنا فيها كذا وكذا؛فهذا لا بأس به؛ إذا كان على سبيل الإخبار أن هذا اليوم وقع فيه الحر أو وقع فيه البرد أو وقع فيه عذاب؛ كما قال تعالى **(في أيام نحسات)** وقال لوط عليه السلام **(هذا يوم عصيب)** إخبارا منه بما حصل ووقع في هذا اليوم من الشدة؛ فهذا لا يدخل في سب الدهر؛ إذا قاله الإنسان على سبيل الخبر لما وقع أو لما هو واقع فيه؛ أما الذي فيه الإشكال وفيه النهي والتحريم والشرك كما سيأتي هو أن يشتم الإنسان الأيام والليالي والزمان والدهر ويذكر هذا الذم والعيب على سبيل التنقص والذم؛ أما كون الشخص يذكر هذا على سبيل الإخبار بما وقع في هو أو وقع فيه غيره فهذا لا بأس به لأنه قد جاء في الكتاب العزيز كما مر .

قوله : « باب من سب الدهر فقد آذى الله » أول مسألة هي مسألة السب والشتم والتنقص واللعن ؛ فالشريعة جاءت عموما بالمنع منها؛ لا يكون المؤمن لعانا ولا شتاما ولا فاحشا ولا متفحشا؛ هذه مسألة مهمة في بداية الكلام؛ فعلى المؤمن أن يعتاد على ترك السب والشتم ؛ وقد قال تعالى : **(ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم)** فسب آلهة

المشركين تُركَ لما كان سيؤدي إلى سب الله سبحانه وتعالى عدوا من المشركين؛ فهذه المسألة الأولى نبه عليها ابن أبي جمرة وهو من شراح البخاري ؛ قال بأن حديث الباب فيه تنبيه بالأعلى على الأدنى فهنا النهي عن سب الدهر ويدخل فيه النهي عن كل سب ؛ يدخل فيه النهي عن السب عموما ؛ فعلى المسلم أن يعود نفسه على أن يمسك لسانه عن السباب والشتم والفحش واللعن والتفحش فإذا فعل ذلك وعود نفسه على ذلك فمن السهل جدا أن يمتنع عن سب الأيام والليالي والساعات والدهر والزمان ؛ هذه المسألة الأولى؛ والمؤلف سيعقد فصلا بعد ذلك بابا في النهي عن سب الريح .

فليس المقصود هنا فقط النهي عن سب الدهر بل النهي عن سب من لا يستحق السب عموما سواء كان سب الريح أو سب البهائم والحيوانات كما جاء في الحديث الصحيح «**لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة**» حديث صحيح رواه أبو داود ؛ فجاء النهي عن سبه وجاء أيضا في سنن أبي داود النهي عن سب الريح «**لا تسبوا الريح**» وسيأتي الكلام عليه في باب مستقل ؛ ويدخل في هذا سب الدواب عموما؛ فمن عنده حمار أو حصان أو إبل أو سيارة أو نحو ذلك من المراكب أو الدواب لا تطاوعه فيسبها ويلعنها؛ هل هي محل للسب؛ ليست محلا للسب ولا تستحق السب؛ هي لم تعجبك ولم تطاوعك تخلص منها وبعها واشتر غيرها ولا تركب دابة ملعونة تسبها .

وسب الدهر مناف لكمال التوحيد الواجب ؛ ومنقص لتوحيد العبد على التفصيل الذي ذكرناه من السب؛ فإنه منقصة في الدين ومنقصة في العقل؛ منقصة في العقل لأن هذا إنسان لا يعقل؛ يسب أشياء لا تستحق السب ، تسب الزمان ، وماذا فعل لك الزمان؛ فسب الأيام والساعات منقصة في العقل ، تسب الليالي والليالي إنما هي خزائن للأعمال ، كما قال الشاعر عتاب بن ورقاء الشيباني :

إن الليالي للأنام مناهل تطوى وتنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

مناهل: والمناهل جمع منهل ما يأخذ منه الإنسان وما ينهل منه؛ وموجود في كثير من الشروحات مهولة وصوابها : مناهل ؛ تقريبا معظم شروحات كتاب التوحيد فيها هذه اللفظة : مهولة ؛ وهي ليس لها معنى في هذا المكان؛ وإنما الذي في دواوين الأدب : مناهل ؛ إن الليالي للأنام مناهل ؛ تنهل منها الخير والأعمال الصالحة وهذه الأيام تطوى وتنشر بينها الأعمار.

ثم يضع ميزانا جميلا من أجله سقت هذه الأبيات يقول:

فقصارهن مع الهموم طويلة : قد يكون الليل قصيرا لكن الإنسان مهموم ويحمل هما وهموما وأعباء وحزنا فيشعر أن هذا الليل القصير ليل طويل مع أنه ليل قصير لا تكاد تستريح فيه أو تنام فيه ؛ مثل بعض ليالي الصيف .

وطوالهن مع السرور قصار: هناك ليال طويلة مثل ليالي الشتاء ليل طويل؛ هذا الليل الطويل قد يكون قصيرا إذا كان الإنسان في سرور وحبور ويسمر أو يسهر مع من يحبه ومن يرتاح له فيكون الوقت قد مضى؛ لم نحس بالليلة كيف مضت؛ إذا الليالي والأيام بحسب ما يقع فيها وبحسب ما تودعه أنت فيها من الخير أو العلم أو العمل أو السرور أو الحبور والعكس بالعكس .

لذلك جاء أنه كانت العرب تسب الدهر وتسب السنين والأيام والليالي وتسند إليها الأعمال المذمومة فتقول أصابتنا قوارع الدهر ونوازل الدهر؛ لما ينسبون إليه ما يكرهون ؛ وهذا المعنى أخذه عدد من الشعراء في الجاهلية وفي الإسلام ينسبون للدهر الأعمال القبيحة والأفعال القبيحة ؛ ومن ذلك ما يقوله ابن المعتز:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدا　　　أنت والد سوء تأكل الولدا

سبحان الله ؛ هل الدهر هو الذي يبقي ويحيي ويميت أم الله سبحانه وتعالى الواحد القهار؟!! فهذا يسند الإماتة والإهلاك الذي حصل لولده إلى الدهر؛ يقول: يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدا وأنت والد سوء تأكل الولدا؛ هذا من مسبة الدهر الذي نتكلم عنها .

مثال آخر يقول أبو الطيب المتنبي :

قبحا لوجهك يا زمان فإنه　　　وجه له في كل قبح برقع

يعني كأنه يعيب ويتنقص الزمان أنه متغير ومتلون ويلبس البرقع في كل شر؛ وهذا أيضا سب للدهر .

ويقول أبو العالية الثقفي يعتب على هؤلاء يقول:

يا عاتب الدهر إذا نابه　　　لا تلم الدهر على غدره

يا عاتب الدهر إذا نابه : يا من يعتب على الدهر .

لا تلم الدهر على غدره : إذا هذه كلمة أخرى سيئة؛ يعني يصف الدهر بالغدر وكما سبق أن بعض الناس يكتب على المحل أو على السيارة غدار يا زمن؛ فيقول أبو العالية الثقفي:

يا عاتب الدهر إذا نابه　　　لا تلم الدهر على غدره
الدهر مأمور له آمر　　　وينتهي الدهر إلى أمره
كم كافر أمواله جمة　　　تزداد أضعافا على كفره

ومؤمن ليس له درهم يزداد إيمانا على فقره

الدهر مأمور له آمر: يعني انظر كلام هذا الرجل فيه حق وباطل .
كم كافر أمواله جمة تزداد أضعافا على كفره: يعني الكافر يبسط له في رزقه وفي صحته وفي ماله حتى يأتي يوم القيامة يلقى الله سبحانه وتعالى ليس له حسنة يكافأ عليها فيؤخذ بكفره وقد عجلت له حسناته في الدنيا؛ لله الحكمة البالغة؛

كما كافر أمواله جمة : يعني أمواله كثيرة؛ إنسان كافر أو فاسق أو جاهل؛ تزداد أضعافا على كفره؛

ومؤمن ليس له درهم: مؤمن ليس له درهم؛ فقير؛ لكنه يزداد في الإيمان؛ لأنه ليست الأموال هي المقياس التي يقاس بها التقي من غير التقي الصالح من غير الصالح ولو كانت كذلك ما أعطاها الكافر وما سقى الكافر منها شربة ماء لكن الدنيا تعطى لمن يحب ومن لا يحب ؛ ولا يعطي ولا يصطفي لدينه إلا من أحب سبحانه وتعالى ؛ فهذا يلوم هؤلاء ويلوم من يعاتب الدهر .

يقول الأعشى ـ والأعشى هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل ـ :

أأن رأت رجلا أعشى أضر به ريب المنون ودهر مفند خبل

ريب المنون: الموت والهلاك

ودهر مفند خبل: يصف الدهر بالجنون

فهذه المسألة التي نتكلم عليها مسألة شائعة في القديم وفي الحديث ، ولو أحببنا أن نأتي بأمثلة لكثرت الأمثلة والذي يمشي بين الناس سيسمع كثيرا من سب الدهر وسب الأيام والليالي والزمان ؛ ورمي الدهر بالغدر والخيانة والخبل والجنون وغير ذلك ؛ لذلك كان من المهم من أجل ذلك عقد المؤلف هذا الباب الخطير: **باب من سب الدهر فقد آذى الله .**

ما معنى «**آذى الله**» هل يصلح أن ننسب الأذية لله سبحانه وتعالى؟

الجواب : نعم ؛ هذا وارد في كتاب الله سبحانه وتعالى **(إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا)** فأثبت الأذية لله ولرسوله ؛ لكن من القواعد المهمة بيان الفرق بين الأذية والضرر فإن العباد لن يضروا الله شيئا . **(إنهم لن يضروا الله شيئا)** وكما جاء في الحديث «**يا عباد إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني**» الحديث القدسي المشهور .

إذا العباد لا يستطيعون أبدا أن يضروا الله سبحانه وتعالى مهما اجتمعوا ؛ لكن الأذية حاصلة ؛ وأهل العلم يقولون الأذية لما خف أثره من الشر والمكروه؛

وهذا التعريف ذكره الخطابي وأقره شيخ الإسلام ابن تيمية : أن الأذى يقع لما خف أثره وضعف أثره من الشر والمكروه .

وبعض أهل العلم كما ذكر الحافظ في الفتح يذكر أن الأذية تقع على ما أثَّر وما لم يؤثر؛ ما كان له أثر أو لم يكن له أثر؛ لكن على كل حال في حق الله سبحانه وتعالى فإنه لن يستطيع أحد أن يضر الله سبحانه وتعالى ؛ لكن الإيذاء بالشرك أو المكروه أو بنسبة ما لا يليق به إليه سبحانه وتعالى ؛ هذا كله يؤذي الله سبحانه وتعالى؛ وليس معنى يؤذي الله أنه يضره ؛ لا بد لك أن تفرق بين الأمرين ؛ فشرب الخمر وعدم الغيرة على المحارم وانتهاك الحرمات والمعاصي كل هذه تؤذي الله سبحانه وتعالى لكنها لا تضره .

كما قال تعالى في حق المؤمنين مع الكفار أو اليهود **(لن يضروكم إلا أذى)** يعني أذى باللسان يعني لن ينتصروا عليكم ولن يبلغوا منكم ما يريدون ؛ وغاية ما يصلون إليه الإيذاء باللسان؛ السب والشتم واللعن والتنقص ونحو ذلك؛

قوله : **«باب من سب الدهر فقد آذى الله»** عرفنا السب وعرفنا الإيذاء؛ نأتي لكلمة الدهر نقف عندها يسيرا ؛ يتبادر لذهن الإنسان لطالب العلم المبتدئ أن الدهر هو الزمان والأيام والليالي وهذا شيء بدهي ولكن من المفيد أن نذكر أن أهل العلم وأهل اللغة وأصحاب المعاجم ذكروا أن للدهر معانيَ أُخر وأن من معانيه التي هي محل البحث الزمان ؛ وبعضهم يقول الزمان الطويل ؛ هذا مبحث الآن في اللغة نذكره من أجل فائدة معينة ؛ بعض أهل العلم يفرق بين الزمان والدهر فيقول الزمان ما أطلق على الشهور من شهرين إلى ستة أشهر أما الدهر فهو ما أطلق على الزمان الطويل ؛ وبعضهم يقول الأحقاب ؛ وعدد من أهل العلم ذكر تصرفات للدهر ؛ يعني ماذا تصرفات للدهر يعني بعض مشايخنا يقول بأن كلمة الدهر اسم جامد غير مشتق ؛ يعني إذا رجعت للفعل دهر هل لها معنى ؛ فمقتضى كلام من ذكرت أنه ليس لها معنى وبناء عليه فنحتاج إلى هذا في المسألة الثانية : هل يصح أن نطلق على الله جل وعلا اسم الدهر أم لا؟ فأصحاب اللغة والمعاجم والقواميس في الحقيقة يذكرون أن للدهر معانيا غير ما ذكرت ؛ فقد يطلق الدهر على الهمة ويطلق على الإرادة ويطلق على النازلة ويطلق على الغاية ويطلق على الغلبة؛ وكل هذه لها أمثلة من الممكن أن تراجعها في تاج العروس للزبيدي لأنه توسع في هذا البحث أو في لسان العرب؛ لكن تاج العروس جمع ما كتب قبله في هذا الأمر خاصة ما كتبه الفيروز آبادي في قاموسه المحيط وفي كتابه تمييز ذوي الأبصار .

فالمقصود أنهم ذكروا للدهر معان غير المعنى المتبادر إلى ذهنك الذي هو الزمان؛ وبناء على هذا قالوا جمع الدهر أدهر ودهور ؛ يعني يجمع الدهر على أدهر ودهور ويجمع على دهارير على غير قياس ؛ يعني مسموع فقط لا يقاس عليه فعاليل كذكر ومذاكير على غير قياس .

النسبة إلى الدهر: دهر عندما تنسب إليها شخصا تقول هذا شخص دَهري أو دُهري وكلاهما صحيح ؛ وقالوا بأن التغيير الذي حصل في دُهري كانت أصلح من دَهري بسبب النسبة ؛ مثلما تنسب إلى كلمة شَغل تقول شُغلي فالنسبة تغير شكل الكلمة من الفتح إلى الضم دَهري دُهري ؛ والدهرية هم الملاحدة الذين يقولون بوجود الله ويقول ببقاء الزمان وأن الزمان والدهر والأيام والليالي هي التي تحيي وتميت وتبيد وتفني إلى غير ذلك؛ الدهرية؛ وهم يشبهون في هذا العصر ما يقال عنهم الطبائعية؛ ومن الممكن أن تأخذ بجانب تقول يعني طائفة من العلمانية الملاحدة لأن العلمانية نسبة إلى العلم وفي الحقيقة هم أصناف الشيوعية والشيوعيون والاشتراكيون والماركسيون ؛ طوائف كلهم من الملاحدة وكل له شيء يتميز به عن غيره ؛ وليس هذا مجال للكلام بالتفصيل لكن الدهرية لهم شبه بالملاحدة الموجودين في عصرنا الذين يطلق عليهم ألفاظ مختلفة كالعلمانية وغيرها .

لكن الدهريين ينسبون الإحياء والإماتة والإهلاك للدهر ؛ أما هؤلاء فينسبونها للطبيعة أو للصدفة ؛ على خلاف ليس هذا محل التفصيل فيه .

قوله : وقول الله تعالى (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ) .

هذه الآية من سورة الجاثية قبلها قوله تعالى **(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون . وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون)** قال ابن كثير رحمه الله تعالى في قوله تعالى **(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)** : إنما يأتمر بهواه ؛ يعني بحسب ما يأمره هواه فمهما رآه حسنا فعله ومهما رآه قبيحا تركه ؛ يعني يدور مع الهوى حيث دار؛ ما أمره به هواه أتاه وما نهاه عنه هواه تركه ؛ هذا متبع الهوى ؛ هذا الذي اتخذ إلهه هواه .

وقال الإمام مالك فيما روي عنه في التفسير: لا يهوى شيئا إلا عبده .
وقال سعيد بن جبير التابعي : كان العرب يعبدون الحجارة والذهب والفضة فإذا وجدوا شيئا أحسن من الأول تركوه ؛ رموه أو كسروه وعبدوا الآخر ؛ كانت العرب تعبد الحجارة والذهب والفضة ؛ يعني أصنامهم منحوتة من الحجارة وقد يكون بعضها من الذهب أو الفضة فإذا رأوا قطعة من الحجارة أو قطعة من الذهب أحسن من الأولى تركوا ذلك المعبود الأول وعبدوا الثاني .
وقال الإمام الشعبي - عامر بن شراحيل الشعبي - : إنما سمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه في النار .
وقد قال أئمة اللغة : أن الهوى مأخوذ من الهوان ؛ لكن حذفت نون الهوان فالهوى فيه الهوان ؛ اتباع الهوى فيه هوان الإنسان ؛ كما قال القائل:

أطعت مطامعي فاستعبدتني   ولو أني قنعت لكنت حرا

وقال آخر :

والنفس إن أتبعتها هواها   فاغرة نحو هواها فاها

فاها: الذي هو الفم؛ يعني النفس إن أعطيتها ما تهوى تقول لك أعطني المزيد؛ تقول لك هل من مزيد ؛ لذلك وضع العلماء قاعدة : إذا كان عندك أمران لا تدري ما الصواب فيهما فاتبع فيهما ما خالف هواك ؛ تصب الصواب .
قال الله تعالى : **(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم)** قال ابن كثير: هذا الجزء من الآية يحتمل قولين :
القول الأول : أضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك ؛ **{ لعلمه}** يعني لعلم الله أن هذا الشخص يستحق هذا ؛ يعني بما قدمه من الأعمال السيئة أو من الكفر أو من الشرك أو من السوء ؛ كما قال تعالى **(وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى. فسنيسره للعسرى)** فهو قدم هذا؛ بخل واستغنى وكذب .
القول الثاني: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه **(وأضله الله على علم)** يعني بعد علم من هذا الشخص ؛ فعلم الحق فحاد عنه وذهب إلى الباطل ؛ مثل الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف **(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها)** فهو انسلخ من الآيات؛ قال تعالى **(فمثله كمثل الكلب)** والعياذ بالله ؛ **(وأضله الله على علم وختم على سمعه)** أي طبع على سمعه فلا يسمع الهدى **(وقلبه)** ختم على قلبه فلا يعقل الهدى؛ لا يعقل شيئا إنما يأتمر بهواه ؛ نعوذ بالله من هذا؛ كما قال تعالى **(كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)** هذا والعياذ

بالله الران؛ قال تعالى **(وجعل على بصره غشاوة)** أي ظلمة؛ فهو لا يبصر الهدى؛ هذا حال من اتبع هواه؛ إذا عليك أن تتبع الهدى وتحذر من الهوى؛ فالفرق بينهما حرفا واحدا؛ الهدى والهوى؛ حرفا يردي الإنسان والعياذ بالله في جهنم أو يرفعه إلى أعلى عليين؛ اتبعوا الهدى؛ هدي محمد؛ وخير الهدي هدي محمد ﷺ وصحبه ؛ لذا قال **(فمن يهديه من بعد الله)** يعني الذي هذا حاله خُتم على سمعه وقلبه وبصره هل أحد يستطيع أن يهديه **(فمن يهديه من بعد الله)** أحيانا شخص تبذل معه كل ما تستطيع من الحيل وتحاول معه بصنوف ألوان الدعوة ؛ وليس هناك أي استجابة ؛ **(فمن يهديه من بعد الله)** كما قال تعالى **(من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون)** من يضلل الله فلا هادي له؛ لكن المطلوب منك أن تقدم إليه الدعوة ؛ لماذا؟ لتؤجر ولتقيم الحجة؛ ولعله يتذكر؛ **(ولعلهم يتقون)** .

ثم قال تعالى : **(وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا)** قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: يخبر تعالى عن قول الدَّهرية أو الدُّهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب ؛ فهذا القول قول قديم وهو مشهور في صابئة الهند القائلين بأن الذي يحيي ويميت ويدير هذا الكون هو الدهر والزمان ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد .

قوله **(نموت ونحيا)** ذكر فيها القرطبي عدة أقوال في كتابه الجامع لأحكام القرآن ذكر عدة أقوال : نموت نحن ويحيا أولادنا ؛ وهذا عزاه للكلبي وهو متروك في الحديث ؛ لكن له باع في التفسير وتفسيره منثور في كتب التفسي ؛ نموت نحن ويحيا أولادنا ؛ وهذا تفسير صحيح ؛ التفسير الآخر: يموت بعضنا ويحيا بعضنا؛ نموت ونحيا ؛ وقيل فيها تقديم وتأخير؛ نحيا ونموت ؛ لأن الأصل الحياة ثم الموت وهذا على قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ نحيا ونموت ؛ وقيل: نموت نحن وتحيا آثارنا ؛ أيا كانت الآثار سواء كانت معنوية أم حسية ؛ وأيضا ذكر قولا آخر قال : أنه إشارة لقول القائلين بالتناسخ وأن الشخص إذا مات تخرج روحه وتنتقل إلى جسد آخر؛ وهؤلاء معروفون في التاريخ ؛ القائلون بالتناسخ؛ يموت الرجل فتنتقل روحه إلى جسد آخر فتحيا به .

قال ابن كثير في قوله **(نموت ونحيا)** أي : يقولون ما ثم إلا هذه الدار؛ يموت قوم ويعيش آخرون وليس هناك معاد ولا قيامة ؛ وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ؛ وهذا يقوله الفلاسفة الإلهيون وهم الذين ينكرون البداءة والرجعة ـ الفلاسفة في الإسلام الفلسفة والفيلسوف معناه الحكيم وهي كلمة

روجت وأطلقت على صنف من الناس أرادوا في الإسلام أن يخلطوا فلسفة اليونان والإغريق بالشريعة الإسلامية فأتوا بالأعاجيب وكان منهم الملاحدة الذين أنكروا صفات الله سبحانه وتعالى؛ أثبتوا له ذاتا مطلقة بدون صفات وأنكروا المعاد والقيامة وأنكروا علم الله جل وعلا بالجزئيات وأنكروا الوحي والرسالة ؛ وقالوا بأن ما يقال للناس من الترغيب والترهيب إنما هو خيالات وأوهام يراد بها حث الناس على الخير ودفعهم للخير؛ لذلك شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : ليس في الإسلام فلاسفة ؛ لا يوجد شيء في الإسلام اسمه فلاسفة ؛ لكن للأسف الشديد هذا روج وجعل لهم شأن وترجم لهم في الكتب ؛ وممن تكلم عليهم ورد عليهم الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة ؛ وشيخ الإسلام له كتاب جيد اسمه الرد على الفلاسفة ـ ويقوله أيضا الفلاسفة الدُّهرية الدورية يعني القائلون بالدّور؛ يعني كل ما الحياة تنتهي تبدأ من جديد ؛ كل ستة وثلاثين ألف عاما تنتهي دورة في الحياة ثم تبدأ دورة جديدة ؛ فيقال لهم أنت ما أدراكم؟ هل أنتم عشتم زمانا أو أحد قال لكم أو قرأتم أنه كل ست وثلاثون ألف سنة كانت هناك حياة كانت موجودة وعالم كان موجود وانتهى وجاءت دورة ثانية ثلاث دورات أو عاشرة؛ هذا تخيل ووهم كما سنذكر في آخر الآية الكريمة فهؤلاء يقولون بالدور؛ أن كل ما تنتهي دورة ست وثلاثون ألف سنة تأتي دورة جديدة؛ هذا تخرص وكذب؛ وافتراء ؛ قال تعالى **(ولا تقف ما ليس لك به علم)** من الذي عاش في الماضي ست وثلاثون ألف سنة حتى يعرف هذا الكلام ؛ وهل كان هناك علم عندهم ؛ وهل وجد هذا في كتاب ؟

يقوله الفلاسفة الدهرية الدُّورية أو الدَّورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ست وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ؛ وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ؛ يعني كثيرا ؛ فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ؛ يعني كذبوا النصوص وكابروا ما دلت عليه العقول وكذبوا ما جاءت به النصوص ؛ وهذا كلام ليس عليه أثارة من علم ؛ يعني أي واحد يقول أي شيء ؛ وقد يأتي من يقول لا؛ خمسون ألف سنة أو ست وأربعون ألف سنة؛ كل ست وأربعون ألف سنة يتغير العالم أو ينتهي أو كل ست عشرة ألف سنة ما الدليل **(قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)** لا بد للكلام من برهان ودليل على الأقوال وإلا فأصحابها أدعياء .

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ : كان المشركون أصنافا منهم هؤلاء؛ يعني المشركين المنكرين للمعاد؛ الصنف الثاني: منهم من كان يثبت الصانع ؛ يعني يثبت الخالق وينكر البعث ؛ ثم قال : وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكارالبعث خوفا من المسلمين ؛ حدث في الإسلام أقوام الذين هم الفلاسفة ؛ لا يستطيعون إنكار البعث ؛ لا يستطيعون أن يقولوا صراحةً ليس هناك معاد وليس هناك قيامة ؛ العوام يثورون عليهم لأن النصوص متظاهرة والأدلة متظاهرة من الكتاب والسنة بالمعاد والقيامة واليوم الآخر وهو أحد أركان الإيمان الستة .

يقول القرطبي: {وحدث في الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفا من المسلمين؛ فيتأولون} وكما سبق بيانه أن التأويل سلاح شهرته فرق كثيرة في وجه أهل السنة من المعتزلة والأشعرية والجهمية وغيرهم؛ فيتأولون؛ لأنه شيء سهل أي شي تأتي له به يتأوله ؛ تأتي له بنص من الكتاب يقول هذا معناه كذا وكذا تأتي له بنص من السنة يقول :هذا غير متواتر؛ نصوص آحاد؛ لذلك ابن القيم تكلم على هذا الطاغوت في الصواعق المرسلة .

يقول القرطبي : {فيتأولون ويرون القيامة موت البدن} يقولون كل نص جاء فيه كلمة القيامة معناه القيامة الصغرى أي موت البدن؛ موت الإنسان؛ هذه القيامة ؛ من مات فقد قامت قيامته وليس هناك قيامة بعد ذلك ؛ هذا كلام الفلاسفة .

ثم قال : {ويرون الثواب والعقاب خيالات تقع للأرواح بزعمهم ؛ فشر هؤلاء أضر من شر جميع الكفار} فشر هؤلاء الفلاسفة أخطر من شر جميع الكفار؛ وعندما تأتي لأحد المبتدعة مثلا تقول عنه هذا أضر على المسلمين من اليهود والنصارى؛ يقول يا أخي اتق الله ؛فيتعجب من ذلك ويقول هذا رجل ينتمي للإسلام وينطق بكلمة التوحيد .

ثم قال القرطبي : {لأن هؤلاء يلبسون على الحق ويغتر بتلبيسهم الظاهر؛ والمشرك المجاهر بشركه يحذره المسلم } .

ثم قال : قال تعالى حاكيا عنهم **(وما يهلكنا إلا الدهر)** يعني أنهم يقولون ما يهلكنا إلا الدهر؛ قال مجاهد: الدهر معناه السنون والأيام؛ يعني ما يهلكنا إلا السنون جمع سنة والأيام؛ وقال قتادة : **(وما يهلكنا إلا الدهر)** يعني إلا العمْر أو العمُر؛ وقال قطرب وهو أحد أئمة اللغة والنحو : **(وما يهلكنا إلا الدهر)** يعني إلا الموت؛ وقال عكرمة: إلا الله؛ وهذا قول بعيد لأنه بعيد أنهم قالوا هذا لأنهم إذا كانوا قالوا هذا فهم لم يخالفوا ولم ينكروا شيئا ؛ وقالوا ما هي إلا

حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الله؛ هذا كلام صحيح في نفسه ؛ وما يهلكنا إلا الله ؛ لكن هذه الآية فيها إنكار عليهم وإنكار قولهم الذي قالوا فيحتاج إلى مراجعة السند إليه .

وفي تفسير البغوي : **(وما يهلكنا إلا الدهر)** أي ما يفنينا إلا مر الزمان وطول العمر واختلاف الليل والنهار؛ وهذه أقوال قريبة وتصب في مصب واحد .

نأتي إلى مسألة في هذا الجزء من الآية وفيما سيأتي من الحديث **«يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر»** هل يصح أن نقول بأن الدهر من أسماء الله هل الدهر من أسماء الله ؟

الجواب : يوجد عدد من أهل العلم من المتقدمين قالوا بأن الدهر اسم من أسماء الله لقوله **«يسب الدهر وأنا الدهر»** وممن قال بهذا الإمام نعيم بن حماد الخزاعي ؛ وهو إمام كبير من أئمة السنة ؛ امتحن في محنة القول بخلق القرآن ومات محبوسا بسامراء ؛ وقد كان جهميا وعرف مذهب الجهمية ورد عليهم في عدة كتب ؛ توفي في عام ٢٢٨هـ ؛ نسب هذا القول إليه شيخ الإسلام ابن تيمية ؛ كما في مجموع الفتاوى في المجلد الأول في صفحة٢٠٤ .

وممن اشتهر عنه ذلك ؛ وأكثر أهل العلم يعزونه إليه ابن حزم؛ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ست وخمسين بعد الأربعمائة؛ قال في كتابه المحلى في المجلد الثامن في صفحة٣١ في كتاب الأيمان : مسألة لا يمين إلا بالله جل وعلا أو باسم من أسمائه ؛ ثم عد أسماء الله سبحانه وتعالى الحسنى كما هو أحصاها؛ إلى أن قال في عده الأسماء: المسعر القابض الباسط الشافي المعطي المقدم المؤخر الدهر؛ هذا كلام ابن حزم في المحلى لأن كثيرا من المشايخ يعزو إليه في كتبهم ؛ ولا يذكرون مكانه ؛ فهو موجود في المحلى في كتاب الأيمان في المجلد الثامن؛ قال بعدما ذكر الأسماء: المسعر؛ وكما سبق من قبل أن المسعر لا يصلح أو لا يصح أن يدخل في الأسماء الحسنى ؛ وقد سألت عن ذلك عددا من أهل العلم منهم الشيخ ابن باز؛ فلم يرو دخوله في الأسماء ؛ فالمسعر لا يدخل في الأسماء الحسنى لأنه ليس فيه معنى حسن؛ وذكرنا أن الأسماء الحسنى لا بد أن تبلغ في الحسن الغاية كما سيأتي الآن في الكلام على الدهر؛ فابن حزم قال المسعر القابض الباسط؛ وهذان اسمان ثابتان؛ الشافي؛ ثابت في صحيح البخاري أيضا **«اشف أنت الشافي»**؛ المعطي؛ أيضا ثابت في صحيح البخاري؛ المقدم المؤخر أيضا ثابت في الصحيح؛ ثم قال: الدهر؛ فعد الدهر من الأسماء

الحسنى؛ وابن حزم كما تعلمون كان ظاهريا؛ وكان شيخنا ابن عثيمين يقول ليته كان ظاهريا في العقيدة كما كان ظاهريا في الفقه لأنه في العقيدة كما قال عنه الحافظ الكبير ابن عبد الهادي في طبقاتن المحدثين : {جهمي جلد} وهو إمام كبير في السنة وفي الحديث ويدافع وينافح عن السنة وعن الشريعة بكل قوة في الحقيقة وهاجم المتعصبة والمقلدة في أماكن كثيرة من كتبه لكنه في العقيدة عليه ملاحظات كثيرة وتكلم عليه عدد من أهل العلم وأفردوها في الكتب؛ فالقصد من الكلام أنه قال: المقدم المؤخر الدهر .

وممن ذكر أيضا الدهر في الأسماء إمام الاتحادية ابن عربي الطائي صاحب الفتوحات المكية ؛ وفصوص الحكم ؛ قال عنه الزبيدي في كتابه تاج العروس وهو أحد قواميس اللغة وهو يشرح القاموس المحيط للفيروز آبادي ويستدرك عليه قال الزبيدي : وقد يعد في الأسماء الحسنى؛ يعني اسم الدهر؛ لما ورد في الحديث الصحيح وذكر الحديث «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر**» ثم قال الزبيدي: قال شيخنا؛ ويقصد بشيخه محمد بن الطيب الفاسي؛ المتوفى سنة١١٧٠هـ قال شيخنا: وكأن المصنف؛ يعني الفيروز آبادي؛ رحمه الله تعالى قلد في ذلك الشيخ محيي الدين بن عربي؛ وهذا رأس الزنادقة ؛ وإن بعضهم الآن في هذا العصر وفي غير هذا العصر يقولون أنه إمام الأولياء؛ يقول : قلد في ذلك الشيخ محيي الدين بن عربي قُدس سره ـ يعني يدعو له ـ فإنه قال في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات المكية ؛ التي كتبها يعني فتحت عليه وهو في مكة : الدهر من الأسماء الحسنى؛ هذا كلام ابن عربي في الفتوحات ؛ الدهر من الأسماء الحسنى كما ورد في الصحيح؛ وهو في الصحيح لأنها توافق ما عندهم وإلا فهم لا يعبأون بالنصوص؛ يقول ابن عربي: ولا يتوهم من هذا القول الزمان المعروف الذي نعده من حركات الأفلاك؛ يعني يقول نحن نقول : إن الدهر من أسماء الله لكن ليس المقصود الزمان الذي هو ناتج عن حركات الفلك ؛ الذي نعده من حركات الأفلاك ونتخيل من ذلك درجات الفلك التي تقطعها الكواكب؛ ذلك هو الزمان وإنما هو في الاسم الدهر ومقاماته التي ظهر عنها الزمان؛ يعني الزمان ظهر عن اسم الدهر وليس الزمان هو الدهر؛ وهذه فلسفة الاتحادية الصوفية ؛ يقول: ونقله ـ يعني كلام الزبيدي ـ الشيخ إبراهيم الكوراني شيخ مشايخنا ومال إلى تصحيحه ؛ يعني هذا شيخ آخر إبراهيم الكوراني يميل إلى أن الدهر من الأسماء ؛ قال: فالمحققون من أهل الكشف عدوه من أسماء الله بهذا المعنى .

قال الزبيدي: قال شيخنا الذي ذكره السابق وعده من الأسماء الحسنى من الغرابة بمكان؛ يعني الآن يذكر كلام من يرفض هذا وينقد هذا الكلام؛ وعده من الأسماء الحسنى من الغرابة بمكان؛ يعني هذا غريب وبعيد؛ من الغرابة بمكان مكين وقد رده الحافظ ابن حجر وتعقبه في مواضع من فتح الباري؛ يعني رد هذا القول الذي يقول بأن الدهر من أسماء الله سبحانه وتعالى؛ وقد رده الحافظ ابن حجر وتعقبه في مواضع من فتح الباري وبسطه في التفسير وفي الأدب وفي كتاب التوحيد .

يقول الزبيدي: وأجاد الكلام فيه من شراح مسلم أيضا عياض؛ يعني القاضي عياض أيضا رد قول من يقول بهذا؛ والنووي والقرطبي وغيرهم؛ وجمع كلامهم الأبي في الإكمال؛ الأبي له كتاب اسمه إكمال المُعلِم وهو مطبوع موجود، جمع كلام هؤلاء؛

وقال القاضي عياض: القول بأنه من أسماء الله مردود؛ غلط لا يصح؛ هذا كلام القاضي عياض؛ القول بأنه من أسماء الله مردود وغلط لا يصح؛ بل هو مدة زمان الدنيا ؛ انتهى؛ بل كلمة الدهر مدة زمان الدنيا يعني تطلق يراد بها الزمان زمان الدنيا .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

والدهر اسم من أسماء الزمن؛ ليس فيه معنى إلا أنه اسم زمن وعلى هذا فينتفي أن يكون اسما لله جل وعلا لوجهين :

الأول: أن سياق الحديث يأباه غاية الإباء ؛ لأنه قال **«وأنا الدهر أقلب الليل والنهار»** فيمتنع أن يكون المقلّب مقلّبا والخالق مخلوق؛ لأنه قال: أقلب الليل والنهار؛ فهناك مقلّب وهناك مقلّب؛ فالمقلَّب الليل والنهار ؛ والذي يقلب الليل والنهار هو الله سبحانه وتعالى؛ ويصرف الليل والنهار؛ فالخالق هو الله سبحانه وتعالى والمخلوق هو الليل والنهار ؛ والمقلَّب الذي يقلَّب هو الليل والنهار فيمتنع أن يكون المقلِّب مقلَّبا.

ثانيا : أن أسماء الله حسنى والدهر جامد لا يحمل معنى إلا أنه اسم للأوقات ؛ فلا يحمل المعنى الذي يوصف بأنه أحسن المعاني ؛ لأن أسماء الله حسنى؛ لكن ما الحسن في كلمة الدهر؟ هل فيها حسن هل هي بالغة الغاية من الحسن؟ الدهر معناه: الزمان أو الغاية أو الأحقاب أو الأيام والسنون والأعوام .

يقول: فليس من الأسماء الحسنى بل هو الزمن ولكن مقلب الزمن هو الله ولهذا قال «**أقلب الليل والنهار**».

وقال أيضا: الأصل في الأسماء أن تكون حسنى؛ أي بالغة في الحسن أكمله؛ فلا بد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من الأوصاف ؛ أسماء الله جل وعلا لا بد أن تكون بالغة نهاية الحسن والكمال في الحسن؛ وأحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة؛ ولهذا لا تجد في أسماء الله اسما جامدا أبدا لأن الاسم الجامد ليس فيه معنى أحسن أو غير أحسن .

ثم لو كان الدهر اسما لله تعالى لم ينكر عليهم في الآية ولم ينكر عليهم في الحديث؛ لأنهم نسبوا الإحياء والإماتة للدهر فقال تعالى **(وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون)** لو كان كلامهم صحيحا وأن الدهر هو الله جل وعلا فكيف ينكر عليهم **(ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون)** يعني يتوهمون ويتخيلون .

قوله تعالى :(وما لهم بذلك من علم) ما: هنا نافية و **(لهم)** خبر مقدم و**(علم)** مبتدأ مؤخر؛ وأتى بـ **(من)** التي تؤكد العموم؛ يعني ليس لهم علم بذلك لا قليل ولا كثير؛ يعني هذا تخرص؛ نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الزمان؛ لا يوجد هناك بعث ولا نشور ولا معاد .

قوله تعالى : (إن هم إلا يظنون) الظن يطلق على التردد بين أمرين أحدهما أرجح من الآخر؛ هذا الظن الراجح؛ ويطلق أيضا على الوهم والتخيل وهو المراد هنا؛ **(إن هم إلا يظنون)** يعني يتخيلون ويتوهمون شيئا لا حقيقة له .

يستفاد من هذه الآية الكريمة أن نسبة الأشياء إلى الدهر وإلى الزمان من خصال المشركين؛ كقولهم : الزمان فعل بنا كذا والأيام فعلت بنا كذا ؛ أو هذه الأيام أيام نحس علينا ونحو ذلك ؛ فهذه من أفعال المشركين ؛ أما الموحد فينسب الأفعال إلى خالقها وينسب الأشياء إلى خالقها سبحانه وتعالى؛ ينسب المفعولات إلى من خلقها؛ ولا مانع أن يذكر مرتبة السبب ؛ لكن لا يذكر هذا على سبيل الذم والتنقص لمن فعل ولمن خلق ولمن فطر ولمن دبر سبحانه وتعالى ؛ لأنه سبحانه وتعالى يدبر الأمر **(يدبر الأمر من السماء إلى الأرض)** .

ويستفاد منها : أن من سب الدهر فقد شابه المشركين وإن لم يعتقد اعتقادهم.

ويستفاد منها : أن الظن والتخيل لا يغني من الحق شيئا؛ الظن والتخيل لا تثبت به العقائد؛ بل لا يثبت به أي أمر.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي : إن سب الدهر كما أنه نقص في الدين فإنه نقص في العقل؛ وذلك لأن الساب يسب ما ليس محلا للسب يعني الدهر ليس محلا للسب؛

فمن سب شيئا من الجمادات كشجرة أو جدار فهذا ؛ فهذا نقص في العقل ؛ لأنها لا تصنع شيئا ؛ وليس من شأنها الفعل .

ثم قال : فبه تزداد المصائب ويعظم وقعها ؛ يعني بدل ما يستقبلها بصدر رحب ويخفف من المصيبة يعظم وقع المصيبة وتعظم المصيبة في صدره وفي قلبه وتتضاعف ويتضاعف أثرها ؛ وأيضا يغلق بهذا باب الصبر الواجب ؛ وسبق باب مستقل في الصبر الواجب وأنواع الصبر؛ وهذا كله مناف للتوحيد أو لكمال التوحيد الواجب ؛ سب الدهر وما يتعلق به وما يترتب عليه مناف لكمال التوحيد الواجب؛ على التفصيل الذي سبق ؛ إذا قصد أن الدهر هو الفاعل وأنه هو الذي يصرف الأمور ويدبر الأمور فهذا يدخل في الشرك الأكبر شرك في الربوبية وإذا اعتقد أن الدهر مصرَّف وأنه محل للحوادث فهذا يدخل في الشرك الأصغر؛ وفعل هذا من الأمور المحرمة .

ثم قال : {وأما المؤمن فإنه يعرف أن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره} المؤمن يعلم ويوقن بأن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره وحكمته ؛ فلا يتعرض لعيب ما لم يعبه الله ورسوله ﷺ بل المسلم يرضى بتدبير الله ويسلم لأمره وبذلك يتم توحيده؛ يتم توحيد العبد بترك سب الزمان والأيام والليالي والدهر والأزمنة ؛ إذا ترك هذا واستسلم لأمر الله ورضي بقضائه وقدره فقد تم توحيده في هذا الجانب .

الدليل الثاني :

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي قال: «قال تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر أقلب الليل والنهار» .

وفي رواية: «لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر» .

قوله:« **في الصحيح** » يعني في الصحيحين البخاري ومسلم؛ وقد روى البخاري هذا الحديث في موضعين حديث «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر**» رواه في كتاب التفسير في تفسير سورة الجاثية ؛ ورواه أيضا في كتاب التوحيد في باب: **(يريدون أن يبدلوا كلام الله)** انظر إلى فقه البخاري ؛ رواه في كتاب التوحيد في إثبات صفة الكلام ؛ **(يريدون أن يبدلوا كلام الله)** يعني ترى العجب في فقه البخاري في تراجمه ؛ يعني أخذ من هذه الحديث إثبات صفة الكلام؛ لأنه في الحديث «**قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب**

الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار» فالبخاري أثبت من هذا الحديث صفة الكلام وأتى بأدلة أخرى كحديث الصيام ؛ يقول الله جل وعلا **«كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»** فأتى البخاري بعدد من الأحاديث القدسية التي فيها إثبات صفة الكلام وهذا يدل على سعة وعمق فقه هذا الإمام .

والحديث القدسي للعلماء فيه خلاف ؛ هل الأحاديث القدسية لفظها ومعناها من الله أم معناها من الله ولفظها من النبي ﷺ كما يقوله كثير من أهل المصطلح ؛ و الظاهر من الأدلة أن الحديث القدسي لفظه ومعناه من الله سبحانه وتعالى ؛ هذا هو الراجح في هذه المسألة ؛ وقد رجح هذا عدد من مشايخنا المعاصرين كالشيخ عبد المحسن العباد والشيخ عبد الله الغنيمان ومجموعة كبيرة من أهل العلم ترجح هذا وإن كان شيخنا ابن عثيمين يخالف في هذا لكن ظاهر الأحاديث هو هذا **«قال الله تعالى: يا عباد إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»** وقس على ذلك؛ **«قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم»**؛ فظاهر الأحاديث أن هذا اللفظ من الله سبحانه وتعالى ؛ ولا نقول القرآن معجز ؛ فهل الأحاديث القدسية معجزة؟

الجواب : لا؛ لأن القرآن نزل للتحدي والإعجاز والأحاديث القدسية ليست كذلك؛ والقران متعبد بتلاوته ؛ والحديث القدسي ليس كذلك ؛ فليس كل ما يثبت للقرآن يثبت للأحاديث القدسية ؛ فهذا هو الراجح في هذا الأمر؛ قال الله تعالى **«يؤذيني ابن آدم»** وهذا الحديث رواه مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب ؛ وهذا أيضا من عمق فقه الإمام مسلم بن الحجاج ؛ أن عقد كتابا للألفاظ وما ينبغي فيها من التأدب بالألفاظ ؛ وتراجم الأبواب الموجودة في صحيح مسلم ليست من صنيع الإمام مسلم ؛ وإنما هي من صنيع الشراح على اختلافهم في شروحاتهم ؛ كالقاضي عياض والنووي والأبي وغيرهم ممن شرحوا صحيح مسلم .

قوله : **«يؤذيني ابن آدم»** وسبق بيان معنى الإيذاء والفرق بينه وبين الضرر وأننا نثبت الإيذاء وليس في هذا الإيذاء ضرر لله سبحانه وتعالى لأنه لا يستطيع أحد أن يضر الله سبحانه وتعالى شيئا ؛كما في الحديث القدسي : **«يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني»** **(إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا)** لكن الإيذاء ثابت؛ الإيذاء ثابت يتكلم العبد بهذا الكلام فهذا فيه إيذاء الله سبحانه وتعالى والله سبحانه وتعالى يكره هذا الشيء ويبغض هذا الشيء لكن هذا لا يضره .

قوله :«**يؤذيني ابن آدم**» والتنصيص على الذكر؛ ابن آدم ؛ لا يشترط أو لا يدل على أنه المراد الرجال فقط لكن يدخل فيه جميع بني آدم من الرجال والنساء ممن يسب الدهر من الرجال أو النساء .
وكذلك في هذه اللفظة مسألة أشار إليها شيخنا ابن عثيمين وهي قضية أن آدم عليه السلام معروف عند كل مسلم أنه أبو البشر؛ بخلاف ما يقوله أصحاب نظرية داروين أن البشر تطور؛ أصله من قرد وتطور هذا الخلق حتى أصبح الإنسان المعروف والبشر المعروف ؛ وهذا كله كذب وافتراء وتكذيب لآيات الكتاب ونصوص السنة وهذا قالوه للخلط والتخمين والظن الذي لا يغني من الحق شيئا؛ وهذه النظرية كانت موجودة تدرس في المدارس وفي الكليات منذ عهد بعيد ؛ وهي نظرية باطلة وتكذب ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ من إثبات أن آدم عليه السلام هو أبو البشر ؛ والبشر من نسل آدم عليه الصلاة والسلام .
فقوله «**يؤذيني ابن آدم**» يدل على أن كل البشر من نسل آدم عليه السلام ؛ لأن هذا النص عام لكل من يأتي في كل العصور؛ فهذه ملحوظة مهمة وإذا كان الابتلاء موجودا بها يعني الناس ما زالت تدرس نظرية داروين في المدارس أو في الكليات فيجب على المدرسين أن ينبهوا على بطلانها؛ وقد قيل بأن علماء الغرب قد أبطلوها بأنفسهم .
قوله : «**يسب الدهر وأنا الدهر**» هذا تعليل وسبب للإيذاء وتفسير له ؛ يعني سب الدهر فيه إيذاء لله سبحانه وتعالى .
قوله :«**أنا الدهر بيدي الأمر**» هذا تفسير لهذه العبارة ؛ فالمعنى : أنه سبحانه وتعالى يقلب الدهر بيده الأمر **{ أقلب الليل والنهار}** بتصريف الأمور فيهما والتعاقب بينهما وما يجري فيهما من خير وشر .
وقد ثبت في صحيح مسلم ونحوه في البخاري «**قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر. فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما**» وفي رواية لأحمد «**أرسل الليل والنهار**» فالله سبحانه وتعالى هو الذي يرسل الليل والنهار؛ يدخل هذا في هذا ويولج هذا في هذا؛ سبحانه وتعالى؛ «**فإذا شئت قبضتهما**» .
وقد جاء في المسند في المجلد الثاني صفحة٣٠٠ : عن أبي هريرة مرفوعا «**قال الله تعالى: يشتمني عبدي وهو لا يدري يقول: وادهراه وادهراه**» يعني العبد يشتم ربه وهو لا يدري ؛ كيف يشتم الرب؟ «**يقول وادهراه وادهراه**» ينادي بالويل والثبور على الزمان والأيام والليالي لما حصل عليه فيها من

الخسارة أو الرسوب أو المصائب أو الأمراض أو الفتن أو نحو ذلك؛ « **يشتمني عبدي وهو لا يدري يقول: وادهراه وادهراه وأنا الدهر** » هذا الحديث حسنه الشيخ الأرناؤوط في تعليقه على مسند أحمد .

وفي هذا الحديث من الفوائد وجوب الإيمان بالقدر لقوله تعالى «**أقلب الليل والنهار**» فالعبد يوقن أن ما يحصل في الليل والنهار يحصل بقدر الله سبحانه وتعالى وبقضائه وقدره ؛ ففيه وجوب الإيمان بالقدر وفيه أيضا تحريم سب الدهر لأن هذا إيذاء لله سبحانه وتعالى .

وروى مسلم في رواية «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**» أي مصرفه ومدبره ؛ وقد وقع في بعض النسخ ذكر لرواية أنبه عليها هنا وهي رواية فيها غموض وخفاء ؛ الرواية التي في مسلم «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**» ورد في رواية «**فإن الدهر هو الله**» هذه الرواية ذكرها بعض الشراح وبعض مشايخنا وكأنهم غلطوها من ناحية لأن فيها تصحيفا ونحو ذلك .

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري قال: وقع في رواية يحيى بن يحيى الليثي عن مالك «**فإن الدهر هو الله**» هذه الرواية وقعت في أحد نسخ موطأ الإمام مالك ؛ نقل الحافظ ابن حجر عن ابن عبد البر قال : {خالف جميع الرواة عن مالك } خالف الراوي لهذه الرواية الذي سيأتي ؛ جميع الرواة عن مالك ؛ بل يقول : وجميع رواة الحديث مطلقا ؛ جميع رواة الحديث رووها على الصيغة الأولى «**فإن الله هو الدهر**» وهذا الراوي ذكرها بلفظ «**فإن الدهر هو الله**» هذا في فتح الباري؛ ثم وجدت هذا الكلام موجودا في الاستذكار لابن عبد البر حيث قال في المجلد الثامن صفحة ٥٥٠ : في بعض النسخ عن عبيد الله بن يحيى عن أبيه ؛ إذا هذه رواية يحيى بن يحيى الليثي عن مالك يرويها عنه ابنه عبيد الله بن يحيى عن أبيه يقول في هذا الحديث «**لا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإن الدهر هو الله**» يقول ابن عبد البر: والجماعة يروون : «**فإن الله هو الدهر**» فابن عبد البر يرى أن رواية الجماعة هي الراجحة ؛ وهي قولهم : «**فإن الله هو الدهر**» وهذا الكلام أيضا ذكره في التمهيد في المجلد الثامن عشر صفحة ١٥٢ .

قلت : وعلى فرض ثبوت هذه الرواية كما ذكر الحافظ ابن حجر «**فإن الدهر هو الله**» معناها: فإن مدبر الليل والنهار هو الله سبحانه وتعالى؛ هذا على فرض صحة هذه الرواية وإلا فإن الجماعة جماعة الرواة يخالفون ما ذكره عبيد الله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى الليثي عن مالك .

ومن صور سب الدهر التي هي موجودة بين الناس نسبة الكوارث والمصائب والبراكين للطبيعة ؛ فيقولون هذه كوارث طبيعية ؛ يعني هذه من الطبيعة فيجعلون ما فيه آيات وتخويف مثل الكسوف والخسوف يقولون هذه حوادث طبيعية أو هذه ظواهر طبيعية في الكون؛ مع أنه قد جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى **(وما نرسل بالآيات إلا تخويفا)** وقد جاء في الحديث الذي في الصحيح **«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده»**؛ إذا هذه ليست ظواهر طبيعية كما يزعمون أو كوارث طبيعية ينسبونها للطبيعة؛ لا؛ هذه آيات؛

عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه لما رجفت المدينة؛ اهتزت المدينة وحصل فيها رجفة ؛ فقال : لو عادت مرة أخرى ما ساكنتكم فيها ؛ إذا هذه الآيات فيها تخويف وفيها عظة وعبرة وليس كما يزعمون أنها مجرد حوادث طبيعية أو ظواهر طبيعية أو كوارث طبيعية ؛ فينتبه الإنسان لهذا ؛ هذا الكلام الذي تسمعه في الإذاعات ليل نهار وتقرأه في الجرائد والمجلات ويقوله من لا علم لهم بالشريعة ومن لا فقه عندهم ؛ من نسبة الكوارث والحوادث التي تحصل في الكون سواء الحوادث الأرضية أو السماوية أو نحو ذلك ينسبونها للطبيعة ؛ وكل هذا بتقدير الله سبحانه وتعالى وقضائه وقدره سبحانه وتعالى **(وما نرسل بالآيات إلا تخويفا)** .

والحافظ ابن عبد البر في الاستذكار بحث بحثا جيدا يحسن الرجوع إليه فيقول إن بعض الناس يذم الزمان وينشد في ذلك أبياتا يقول :

يذم الناس كلهم الزماناوما لزماننا عيب سوانا
نذم زماننا والعيب فينا ولو نطق الزمان بنا هجانا

يعني لو الزمان قيل له تكلم والأيام والليالي تكلمت تذمنا نحن وتهجونا نحن لأن النقص فينا والذم علينا فنحن الذين نملأ الصحف إما بالحسنات أو بالسيئات؛

وعائشة رضي الله عنها بعثت مرة إلى بعض أهلها الذين كانوا يسمرون فيما لا فائدة فيه تقول لهم : ألا تريحون الكتبة ؛ أي اتركوا الكتاب الذين يكتبون يستريحون؛ وهذا ذكره مالك في موطئه .

قال ابن عبد البر: وقد أنشدنا ؛ يعني في باب أبي الزناد من كتاب التمييز؛ أشعارا كثيرة من أشعار الجاهلية ؛ فأهل الجاهلية كما سبق كان هذا ديدنهم من سب الدهر ونسبة القوارع للدهر والزمان ؛ يقول: وأشعارا أيضا كثيرة إسلامية ؛ يعني في الزمان بعد عصر النبوة وقس على ذلك ؛ أشعارا كثيرة

إسلامية فيها ذم الزمان وذم الدنيا وذم الدهر إلا أن المؤمن الموحد العالم بتوحيد الله ينزه الله سبحانه وتعالى عن كل سوء ؛ ينوي ذلك ويعتقده فإن جرى على لسانه شيء كعادة الناس؛ يعني الواحد قد يأتي على لسانه شيء مما يقوله الناس ولكنه لا يقصد ذم الزمان والأيام ؛ فيقول: استغفر الله وراجع الحق؛ يعني الذي يحصل منه هذا الشيء يستغفر الله؛ وراجع الحق ؛ وراد نفسه يعني ذم نفسه ؛ عن العودة إليه ؛ كما قال بعض الفضلاء والعقلاء؛ يعني هذا من أدب ابن عبد البر يقول قال بعضهم:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدا وأنت والد سوء تأكل الولدا

ثم يقول هذا الشخص الذي قال هذا الكلام رجع إلى نفسه وتاب؛ الذي يقول: يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدا وأنت والد سوء تأكل الولدا قال:

أستغفر الله بل ذا كله قدر رضيت بالله ربا واحدا صمدا

لا شيء يبقى سوى خير تقدمه ما دام ملك لإنسان ولا خلدا

لا شيء يبقى سوى خير تقدمه : يعني يراجع نفسه؛ لا شيء يبقى سوى خير؛ تضع في الصحائف خير أو شر.

ما دام ملك لإنسان ولا خلدا: ما دام ملك لإنسان؛ لم يدم ملك أحد ولم يخلد أحد من البشر.

فيقول ابن عبد البر معنى كلامه أن الإنسان إذا حصل منه زلة في نسبة السوء وقوارع الدهر وغير ذلك ينبغي عليه أن يستغفر الله ويوحد الله سبحانه وتعالى .

وهنا مسألة : وهي عكس ما سبق ـ مدح الدهر ـ الذي يمدح الدهر من أجل ما يحصل فيه هو يمدح ما ليس أهلا للمدح كذلك ؛ فكما أن الأيام والليالي هي خزائن للأعمال فالذي يمدحها كالذي يسبها لأنه يمدح أو يسب ما ليس أهلا لذلك لكن لا شك أن الذي يسبها أعظم لما سبق بيانه .

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر » .

لقوله «**لا تسبوا الدهر**».

الثانية: تسميته أذى الله » .

وهذا واضح في الحديث.

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر» .

أي : مصرفه ؛ فسره بقوله «**أقلب الليل والنهار**» وليس معناه أن الدهر اسما لله سبحانه وتعالى .

الرابعة: أنه قد يكون سابا، ولو لم يقصده بقلبه » .

وهذه مسألة مهمة؛ أنه قد يقع في حكم ساب الدهر ولو لم يقصد ذلك بقلبه ؛ لأنه في الحديث جعل ذلك سبا بمجرد القول ولم يفصل؛ لم يقل من نوى ومن لم ينو؛ لأنه جعل ذلك سبا بمجرد القول ولم يفرق بين من قصد ومن لم يقصد؛ فيجب على الإنسان أن يحافظ على ألفاظه ويحفظ لسانه ؛ ويعتاد على ترك السباب والشتم ولا يكون سبابا فإن المسلم ليس بسباب ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء .

وذكر الإمام مالك في موطئه : عن عيسى عليه السلام أنه مر أمامه خنزير فسبوه ؛ فقالوا الخنزير يؤذي الناس في مواشيهم وفي زروعاتهم وفي أراضيهم ؛ فقال له عيسى عليه السلام : انفذ بسلام ؛ فتعجبوا ؛ وقالوا له تقول للخنزير انفذ بسلام؛ يعني هذا أسلوب عجيب ؛ قال لهم: إني لا أعود لساني السب؛ فهذا أنجس الحيوانات وأقذرها ؛ ويقول له انفذ ؛ يعني مر بسلام .

فالإنسان لا بد أن يعود لسانه على ترك السباب وترك الفحش من القول؛ وسبق حديث **«لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة» «لا تسبوا الريح»** ونحو ذلك .

الله أعلم